الباب الأول

مقدمات

الفصل الاول

البلاغة بين العلوم الادبية

ليس من غرضنا فى هذه الصفحات أن نعرض للقول فى أصل اللغة العربية ونشأتها ، وبيان الأطوار الأولية التى تعثرت فيها حتى استقامت ، وصارت صالحة للتفاهم بين أفراد الأمة العربية ، أو قبائلها المختلفة ، تفاهما شفوياً أو كتابياً . كذلك ليس من شأننا هنا أن نبحث فيما طرأ على هذه اللغة الفصحى بعد الاسلام من العوامل التى شوهت فصاحتها ، وآذت سلامتها فى أكثر الألسنة حتى شاع فيها اللحن ، وانحط الأسلوب ، وأصبحنا بذلك نرى لغتين : إحداهما لغة فصيحة ممتازة يقصد إليها الخاصة حين يتناولون الشئون الهامة : خطابة أو حواراً أو مراسلة أو تأليفاً . والثانية لغة عامية ، هى لغة السواد الأعظم من هذه الشعوب المستعربة ، ولغة الخاصة حين يرجعون إلى الحياة الاجتماعية العادية بين الناس . أقول : إن ذلك وغيره من أبحاث فقه اللغة وتاريخها . وحسبنا هنا أن نقف حيث نعيش ، وعند نهاية هذه الأطوار لننظر فى هاتين اللغتين ، وماذا عسى أن يصل -- أو يفصل — بينهما وبين الأدب الرسمى ، هذا لذى ندرسه فى مراجعه المقررة ، ونحمل الطلاب على تأثره أو

الانتفاع به ، وتزودهم بالوسائل العلمية التى تعينهم على فهمه وتذوقه ، وعلى الانشاء الأدبى الصحيح .

اللغة العامية هى لغة الحياة العامة ، والتعاون الاجتماعى اللازم لسير الحياة السريعة ونظامها المطرد الشامل : وذلك لسهولتها وشيوعها ، ولأنها القدر المشترك بين جميع الطبقات ، فالكل يعرفها ويلجأ إليها فى حرية ويسر . ولما كانت لغة الشعب ومن صنعه فقد أخضعها لحريته ، وأزال عنها القيود العلمية والاصطلاحية وأعانها على أداء مهمتها كما تتطلب الحياة الجارية ، فصارت لغة مرنة طيعة قابلة للتطور السريع ، لاتنفر من لفظ دخيل ، أو تركيب غريب ، وإنما تقبله وتشربه روحها فيصقله الاستعمال ويصبح مألوفاً مقبولا . ومن الطبعى ، إذا ، أن تختلف هذه اللغات العامية العربية باختلاف الأقطار والأقاليم وذلك لنفس الأسباب التى اختلفت من أجلها اللغات القديمة حين انفصلت من أصولها الأولى . فأهل مصر لهم عاميتهم ، وأهل العراق لهم عاميتهم ، وكذلك المغاربة . كما أن لأهل الصعيد لغتهم العامية التى تخالف لغة سكان الدلتا ، الذين يختلفون هم أيضاً فى عاميتهم باختلاف الأقاليم . ومعنى هذا أن العامية توشك أن تكون هى اللغة القومية لكل قطر من أقطار الشرق العربى ، تتأثر بجوه ، وطبيعته ، ومزاج أهله ، وثقافتهم وأخلاقهم ، وتعود بذلك سجل حياتهم الصادق وأقدر على تشرب روحهم وتصوير أفكارهم ونزعاتهم ، حين عجزت الفصحى أو عجزوا هم عن أن يلبسوها من شخصيتهم ثوباً قومياً طريفاً ممتازاً . لذلك نشأت هذه الدراسات الحديثة التي تعنى بالعامية فتقيد

ألفاظها ، ونحوها ، ولهجاتها ، وآدابها نظماً ونثراً ، إما لأنها طور من أطوار التاريخ اللغوى والأدبى والاجتماعى ، وإما لأنها قد تكون أساساً لهذه اللغات الاقليمية التي قد ينتفع بها فيما بعد كما يرى بعض المفكرين .

ومع ذلك فلا تعد العامية لغة رسمية ولا يعد أدبها أدباً رسمياً يدرس على أنه مثال مقرر يحتذيه المتعلمون ، وذلك لسببين اثنين :—

أحدهما : شيوع الخطأ اللفظى والخروج على قوانين النحو والتصريف وعدم التحرج فى قبول كل دخيل أو أعجمى من الألفاظ والتراكيب ، حتى هجر فيها النحو العربى ، وخضعت العبارات لصور أجنبية فى تأليف الجمل ، وتكوين الأساليب .

ثانيهما : ما غلب على معانيها من التفاهة والعرف ، فأغلبها أوامر ونواه وأخبار عادية تتصل بالحياة الجارية ، وتتكرر كل وقت . وكل يوم مما لا يستحق درساً أو تقييداً . والأدب يجب أن يجمع بين أمرين (١) صحة اللفظ (٢) وقيمة المعنى أو سموه ، حتى يستحق أن يسمع أو يقرأ فى كتاب .

وليس معنى هذا خلو العامية من الألفاظ الصحيحة أو المعانى القيمة ، كلا ، فاللغة العامية هى الفصحى طرأت عليها أخطاء ، ودخلت عليها تراكيب ، لم تستطع أن تمحو صوابها كله ، كذلك نجد فيها فنوناً أدبية من النثر والنظم — كالجدل والحكم ، والأمثال ، والأغانى والمواويل والأزجال — تجعلها معرضاً لكثير من المعانى والموضوعات الأدبيه القيمة ، ولكنها من الأدب الشعبى على أية حال .

أما اللغة الفصحى ، التى لم تشوه بهذه الأخطاء اللفظية ، فهى لغة الأدب الرسمى ، يعتمد عليها الكتاب حين يريدون التعبير عن عن الأفكار أو تصوير الشعور ، أو تأليف المسائل والآراء العلمية إذ كانت الفن الكلامى الذى يؤدى ما فى النفوس من ثمرات العقول ونوازع الانفعال والميول. فاذا حاولنا الظفر بمثال للأدب بحثنا عنه فى المؤلفات المدونة باللغة الصحيحة ، مهما يكن نوع هذا الأدب خاصاً أو عاماً ، وليكن قول المتنبي :—

مِنَ الحلم أن تستعملَ الجهلَ دونه ... إذا اتسعت فى الحلم طرْقُ المظالم
وأن ترد الماء الذى شطرُه دمٌ ... فتُسقى إذا لم يُسق من لم يزاحم
ومَن عرف الأيام معرفتى بها ... وبالناس روّى رمحه غيرَ راحم
فلا هو مرحومٌ إذا ظفِروا به ... ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

فأول ما يلقانا من هذا المثال — عاطفة — أو انفعال السخط والعدوان الذى سيطر على نفس الشاعر فأنطقه بهذه الأبيات القوية الثائرة التى حشد فيها الظلم والدم وأنكر الانصاف والتراحم . وهذه العاطفة نفسها قد سندتها فكرة هى لها كالبرهان المنطق ، فالجهل حتم إذا لم ينفع الحلم ، والجهاد الآخر واجب إذا لم يكن منه بد لتحقيق الرغبات ، فالحق للقوة ، والناس لا يؤمنون إلا بالرهبة ، والويل للضعيف إذا هان . وهنا قد ظفرنا بعنصرين من عناصر الأدب : العاطفة [1] Emotion والفكرة [2] Thought وبعد هذا نلاحظ أن هذه العاطفة القوية احتاجت فى تصويرها هنا إلى عناصر وفنون بيانية من التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ،

١ — راجع صحيفة دار العلوم عدد ٣ من السنة الثالثة للمؤلف
٢ — نفس المرجع عدد يوليو سنه ٩٣٨

وذلك لعجز اللغة العادية عن تصوير القوة الانفعالية فى نفس الشاعر فاحتال وكون من هذه العناصر الخربية لغة فنية هى كفاء مافى نفسه من شعور . فهذه الصور تؤلف عنصراً ثالثاً هو الخيال Imagination (١) وهو لازم فى كثير من الأحيان للتعبير عن العاطفة .

وأخيراً نجد العبارة اللفظية التى قد تسمى الأسلوب Style . وهي الوسيلة اللازمة لنقل أو إظهار مافى نفس الأديب من تلك العناصر المعنوية فصار الأدب ينحل إلى هذه العناصر الرئيسية الأربعة . وهذا التحليل نفسه يتوافر فى النثر كما توافر فى النظم على اختلاف فى الدرجة تبعا لاختلاف طبيعة الفنون فيهما . ومن هنا نستطيع أن نعرف الأدب بأنه الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة .

أفتظن أن الناس حين يسمعون هذا النص الأدبى أو غيره ، يعجبون به جميعاً ؟ وإذا كان ذلك فهل يعجبون بدرجة واحدة أولا ، ولأسباب واحدة ثانياً ؟

الشعراء والكتاب كثيرون . وآثارهم الأدبية صور لشخصياتهم المتباينة . فلا بد أن تتباين هذه الآثار تبعاً لاختلاف الأمزجة والأذواق ومثل ذلك يقال فى القراء والسامعين . فهم مختلفو المواهب . والأمزجة والأذواق . وكل منهم يعجبه من النصوص الأدبية مايلائم ذوقه . وبقدر المشابهة بين المنشىء والقارىء يكون اطمئنان الثانى إلى الأول وشغفه بأدبه وحسن تقديره لأنه صورة نفسه ومزاجه . وكلما تنافرت الأذواق كان الانصراف وسوء الحكم والتقدير . ومن هنا نشأ النقد الادبى فى طوره الأول ،

(١) نفس المرجع السنة الرابعة عدد ٣
(٢) نفس المرجع . السنة الثانية . العدد الثالث

فأول ناقد وجد عقب أول منشىء . والنقد يقوم على الفهم وصحة التقدير . ويمكن تعريفه بأنه بيان قيمة النص الأدبى ودرجته الفنية [١] فاذا أخذنا قول المتنبي السالف موضعاً للنقد ، فقد نحكم له بوضوح الأسلوب وقوته وجماله . وبطرافة الأفكار وصحتها . وبحسن التصوير الخيالى وملاءمته وبصدق العاطفة وقوتها . ثم نذهب فى تعليل ذلك مذهباً واحداً أو مذاهب شتى تبعاً لأذواقنا . ومعارفنا وتجاربنا . وقد يأخذ عليه غيرنا هذا العنف الصارم . وسوء الظن بالناس وبالحياة حتى أقر الظلم والعدوان وكانت عاطفته ألمية غير سامية . ويقول فى ذلك مايشاء حسبما توحى اليه أخلاقه ومعارفه . فالأدب سابق والنقد لاحق . والأدب فن إنشائي إيجابى ينتج هذه القطع الممتازة التى نظفر منها بصدق الشعور . وحسن التفكير والتعبير . ولكن النقد فن وصفى سلبى فى أصله . يقوم بمحاسبة الاديب المنشىء . وكثيراً ما يستحيل فنا نافعا يرشد الادباء كما تقوم بذلك البلاغة . وقد زها النقد الأدبى منذ العصر الجاهلى ، وتواردت عليه فيما بعد جهد النحاة واللغويين والأدباء [٢] . وألفت فيه كتب شتى تجمع مسائله مختلطة بغيرها من مسائل النحو والبلاغة والسير والأنساب . وكان الذوق هو الحكم الأول فى ناحيته الفنية ، وإن حاول بعض المحدثين أن يضعوا له قوانين عامة تشبة القوانين العلمية .

ولقد كان النقد الأدبى من أهم العوامل فى إيجاد علم البلاغة وذلك أن هذه الملاحظات والأحكام النقدية أفادت جماعة من العلماء .

---

(١) — راجع أصول النقد الادبي للاستاذ Winchester

(٢) — تاريخ النقد الادبي عند العرب للاستاذ طه ابراهيم

فأحالوها قوانين وأصولا . ودونوها فى فصول مختلطة بالنقد حيناومنفصلة أخيراً . حتى كانت أساساً صالحا لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها فيما مضى . وهى الآن آخذة فى الاكتمال لعلها تنهض بالواجب عليها منذ الآن . ومن يقرأ المؤلفين فى هذا الباب من عهد الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هجرية . وابن المعتز ٢٩٦ هـ . وقدامة ٣١٠ هـ . والعسكرى ٣٥٩ هـ وعبد القاهر الجرجانى ٤٧١ هـ . والثعالبي ٤٢٩ هـ . وابن رشيق ٤٦٣ هـ . إلى الزمخشرى ٥٣٨ هـ والسكاكى ٦٢٦ هـ يتراءى له ما قلنا من أن النقد كان عاملاً هاما فى هذا التقنين البيانى . وأن هذين العلمين — أو الفنين — قد عاشا مختلطين لم ينفصلا إلا بعد جهد عنيف. وهذا الاختلاط بين مسائلهما طبعى مادام موضوعهما واحداً هو النصوص الادبية من حيث توافر الجمال والتأثير . فالبلاغة ترشدنا بقواعدها إلى الطرق والوسائل التى تجعل كلامنا نافعاً مؤثراً . والنقد يضع لنا المقاييس العامة التى نقدر بها مافى الكلام من فائدة أوقوة أوجمال . ومع ذلك فيمكن الفرق بينهما من وجهين(١)

الأول أن البلاغة أقرب إلى الناحية الفنية الايجابية . ما دامت قواعدها ترشدنا إلى الانشاء الصحيح . والي الطرق المختلفة لتأليف الكلام الممتاز بالافادة وقوة التأثير . وإلى نوع الفن الادبى الذى يكون أوفق من سواه لمقتضى الحال . وأما النقد فانه يفرض أن الكلام قد تم إنشاؤه . وانتهى منه صاحبه . ثم يعرض علينا مقاييسه العامة التى نقيس بها الكلام لبيان قيمته الفنية والحكم له اوعليه فهو متأخر الوظيفة . يعنى كما قلنا . بمحاسبة الأديب بعد أن ترشده البلاغة الى حسن التعبير .

(١) Winchester

الثانى : ان البلاغة تعني أكثر ما تعنى بالاسلوب . فهى كذلك تفرض أن الكاتب لديه ما يودأن يقوله أو يكتبه من المعانى والافكار أيا كانت قيمتها أو درجتها ، من السمو أو الضعة ، ثم ترسم له خطة الأداء قولا أو كتابة . ولكن النقد يتناول الاثنين : المعانى والأساليب فيسأل عن صحة المعاني وقيمتها . ومقدار آثارها فى القراء أو السامعين . ثم يتبين فى الأسلوب — ولكن من ناحية عامة — مقدار ما فيه من الوضوح والقوة . والجمال . ومن هذه الخواص الفنية التى يدركها الذوق المهذب وقد تعجز القواعد البلاغية عن تعليلها أو الخوض فيها . وهنا نلاحظ أن دائرة النقد أوسع . وان كانت قوانين البلاغة أوضح وأدق من مقاييس النقد الأدبى كما يمر بك بعد حين .

هذا الأدب الذى أشرنا اليه كثيراً ما يتجاوز الباحثون نقده إلى معارف ومحاولات عدة تزيد جوانبه إيضاحا وتعلل كثيراً من مظاهره الأخرى فتجدهم مثلا يقفون عند الأدب الجاهلى . ويدرسون فنونه المختلفة ويحللون نصوصه الى عناصرها . ويلاحظون على هذه الفنون والعناصر ملاحظات تتصل بمزاجتها . أو قوتها . أو شدة اتصالها بالبادية أو بالحياة الصحراوية الفقيرة المضطربة . ثم يستخلصون من ذلك البحث الشامل العميق أحكاما عامه تدون فى فصول منسقة، هى تاريخ الأدب الجاهلي . ومثل ذلك يقال فى العصر الأموى والعباسى والعصر الحديث . ترى لكل عصر خواصه الأدبية . والمؤثرات المختلفة — العلمية . والفنية . والاقتصادية . والسياسية والدينية . والشخصية — التي أكسبت الأدب هذه الخواص فامتاز بها عن سواه وصار عصراً أدبيا مستقلا عن سائر

العصور . نتائج هذه الابحاث هي تاريخ الأدب الذى يمكن تعريفه بأنه (بيان المشخصات الادبية لكل عصر مع شرح أسبابها) ومن هنا نعرف أن تاريخ الأدب ليس قصصا وانسابا ونوادر . وانما هو نقد وتحليل وتعليل. شأنه شأن التاريخ الطبعى حين يتناول الكائنات بالتحليل والتفسير والموازنة والاستنباط ليصل من ذلك إلى حكام عامه تكون له التاريخ . وكذلك الشأن فى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى . كله نقد وتنسيق لا قصص وأساطير[1] وعلى هذا الأساس قام الخلاف حول التاريخ : أعلم هو أم أدب ؟ فمن نظر الى المسائل الواقعية التى يتناولها ويدرسها رأى فيه علما له حقائقه ونتائجه . ومن نظر الى تدخل الشخصيه ووجهة النظر فى تصور الحوادث وتصويرها قرر أنه أدب . والحق أنه أدب بالمعني العام أو علم بالمعني العام ففيه من كل شيء يقفه هذا الموقف الوسيط . ومما تقدم نستطيع استخلاص النتائج الآتيه : —

الأولى : أن الأدب فن خالص . وهو من الفنون الجميلة التى تعتمد على الجمال فى التعبير عن عواطف الانسان وأفكاره او عن شخصيته الفنية ولكن تاريخ الأدب يجمع بين الناحية الفنية التى يلجأ اليها المؤرخ حين يحلل الأدب ويتبين خواصه الجميلة أو غيرها وبين الناحية العلمية التى تعنى بالتعليل والموازنات . واستنباط الأحكام . ولذلك سموا الأول ادباً إنشائيا أو دبا بالمعني الخاص . وسموا الثانى أدبا وصفيا أو أدبا بالمعنى العام .

الثانية : أن النقد الأدبى كما رأيت جزء من تاريخ الادب . أو

(١) راجع فى الادب الجاهلى لطه حسين

هو أداته الرئيسية فعليه يعتمد المؤرخ قبل كل شيء مادام يتعمق فى درس الأدب وتحليله . وبيان خواصه التى يتخذها دارس التاريخ موضوعاً لعمله الوصفى الشارح . ثم يلجأ الى المؤثرات الشخصية أو الجغرافية . أو السياسية أو الدينية التى أكسبت الأدب ميزاته الخاصة .

الثالثة : أن علم البلاغة نافع للأديب . والناقد . والمؤرخ . ولكل كاتب . أو متكلم . أو خطيب . أو مدرس . فانه ينير السبيل أمام هؤلاه جميعا . ويعينهم على أن تكون آثارهم اللغوية مفيدة . مؤثرة ممتعة . تغذى العقل والشعور والأذواق .

وهناك علوم أدبية أخرى لابد للأديب من الالمام بها إلماما كافيا ليقى نفسه شر الأخطاء فى التعبير : اللغة . والصرف . والنحو . والعروض ونريد باللغة شيئين . متنها . وفقهها . فمتن اللغة كلماتها . وأمثالها وحكمها . وعباراتها الاصطلاحية . ولتلك معاجمها ومراجعها . ولسنا ندعو إلى حفظ ذلك واستيعابه فهو عسير أو مستحيل على أن تحصيله من قراءة النصوص أنفع لبيان المواقع المناسبة لاستعمال الكلمات والحكم والأمثال ولتفهم معانيها الواضحة الدقيقة مما يحيط بها من العبارات والمناسبات . وفقه اللغة تاريخها وفلسفتها . ومن النافع للاديب أن يعرف كيف نشأت اللغة وانفصلت عن أصلها القديم . وتكونت ببيئتها الخاصة وكيف تأثرت بغيرها وانتقلت عباراتها من الاستعمال الحقيقى الى المجازى وما هى وسائل إكثارها وضعا أو تعريبا أو توليداً أو نحتا فذلك أليق به وأنفع له وبخاصة اذا كان مؤرخا أو ناقداً . والصرف يفيد فى التصرف فى الكلمات تبعا للمعانى المتباينة كما يقى الأديب الخروج عن الأصول المرعية حين التصرف والتصريف

بالجمع والتصغير والنسب والابدال والتوكيد وبناء المشتقات . وأما النحو فمهمته تصحيح التراكيب والعبارات متخذاً المعانى الجزئية مقياسه لذلك ويظهر أثره الواضح فى حسن التأليف وسلاسة العبارة والحرص على دقة المعنى ووضوحه فالنحو لا يقف عند حركات الاعراب بل يشمل موسيقا العبارات ومنطق المعانى . والاذن تتأذى من الأخطاء النحوية كما يتأذى العقل من التعقيد اللفظى والمعنوى جميعا . والعروض للناظم هو مقياسه الموسيقى والخطأ العروضى كالخطأ النحوى فهذه التفعيلة التى تتكرر فى الشطر تحفظ وحدته الوزنية ثم تحفظ وحدة البيت حين تتكرر فى شطره الثانى . وتكرار الوزن فى كل بيت يحفظ للقصيدة وحدتها الموسيقية . كما ان وحدة القافية ضبط لهذه النغمة الأخيرة التى تنتهى بها الأبيات جميعا . هذا هو الكثير الشائع فاذا تركناه إلى تعدد البحور والقوافى لم نعدم الموسيقا العروضية وإنما نكون قد ظفرنا منها بتنوع لا يرفضه الذوق على الاطلاق .

هذه هي العلوم الادبيه المباشرة أجملنا القول فيها لبيان مكانة البلاغة بينها ، ولهذه الصلات التى تربطها بالادب ربطا قويا مباشراً لا يليق بالمتأدب تجاهله . على ان الأدب والأديب لا يكتفيان بما ذكرنا هنا . بل لا بد لكمالهما من هذه الثقافة العامة التى قال عنها الأقدمون إنها الأخذ من كل فن بطرف[1] وهذه الثقافة تتناول الفلسفة والتاريخ والدين والقانون والفنون الجميلة وغيرها . إذ ان الأدب يختصرها فى نصوصه . والأديب يحتاج اليها منشئا او ناقداً او مؤرخا كما سبق بيانه . وقد عقد ابن الأثير فى صدر كتابه المثل السائر فصلا فى آلات علم البيان وأدواته يحسن الرجوع اليه لمن اراد

(١) — راجع مقدمة ابن خلدون فصل علم الادب

الفصل الثانى
فى تعريف البلاغة

المشهور فى كتب البلاغة العربية[١] ان البلاغة لغة تنبىء عن الوصول والانتهاء . يقال بلغ فلان مراده إذا وصل إليه . وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها . واصطلاحا . تكون وصفا للكلام والمتكلم . فبلاغة الكلام مطابقته لمقتضي الحال . والحال هو الأمر الداعى للمتكلم الى أن يميز كلامه بميزة هى مقتضى الحال. فانكار المخاطب للمعنى حال يقضي ان تؤكد له الجملة فتقول إن محمداً ناجح . وذلك التأكيد هو مقتضى الحال . وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها علي تأليف كلام بليغ فى أى معنى قصد ، والبلاغة هذه تستازم امرين :

الأول : الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المقصود خوفا من أن يؤدى بلفظ غير مطابق لمقتضي الحال فلا يكون بليغا .

الثانى : تميز الكلام الفصيح من غيره حتى نضمن سلامة العبارة من الخطأ والتعقيد ، فمست الحاجة إلى علمين لتحقيق سلامة اللفظ من ناحية ، وملاءمته لمقتضى الحال من ناحية اخرى ، الأول علم البيان والثانى علم المعانى ، وقد يسميان بعلم البلاغة لذلك ، ولما كان علم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام جعل تابعا لهذين العلمين ، فصارت مباحث البلاغة منحصرة فى هذه العلوم الثلاثة : المعاني ، والبيان ، والبديع .

---

(١) راجع حسن الصنيع تأليف اليبانى .

اما هذا التعريف فلا اعتراض لنا عليه فى جملته ، إذ كانت البلاغة فى أصح واحدث معانيها لا تخرج عما اورده هؤلاء الأقدمون من الناحية النظرية الاجمالية . يقول الأستاذ Genung : «البلاغة فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع وللحالة على حاجة القارىء او السامع » فتجد ان الحدود واحدة فى جوهرها وإن لوحظ فى الأخير هذه الناحية الفنية فى صراحة واضحة . ولكن المسألة هي : كيف فهم علماء البلاغة عندنا معني المطابقة اولا ؟ وما الوسائل التى اعتمدوا عليها فى دروس البلاغة لتحقيق هذه المطابقة ثانيا ؟ وما هذه العلوم البلاغيه ثالثا ؟

إذا وقفنا عند هذه المسائل التى انتهت إليها أبحاثهم رأينا م يذكرون أن خطاب الذكى يخالف خطاب الغبى ، وخطاب المنكر غير خطاب المتردد . وعلى هذا الأساس عالبا تقوم المطابقة لتغذية قوة الادراك . ووسيلة ذلك التصرف فى الجملة وعناصرها ، خبراً وإنشاء ، فصلا ووصلا ، تعريفا وتنكيراً ، ذكراً وحذفا ، ثم الاختلاف بين التشبيه والمجاز والكناية مما لا يتجاوز كله دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة ، ومعنى ذلك امور ثلاثة :—

(١) — غاية البلاغة فيما يبدو من هذه الدراسة العلمية يغلب عليها الاتجاه الى القوة الفكرية وإقناع العقل إقناعا جزئيا قائما على ذكائه او بلادته وعلى شكه او إنكاره .

(٢) ووسيلة ذلك الصورة — التى تختصر علم البيان وقسما من البديع — والجملة الخبرية والانشائية. وقد درستا من بعض النواحى لا غير.

(٣) وعلم المعانى هو الكفيل بدراسة الجملة عندهم . كما ان البيان يدرس

الصورة تشبيها ومجازاً وكناية . وأما البديع فقد عدوه شيئا ثانويا لا دخل له فى صميم البلاغة لأنه قائم على دراسة طرق التحسين الذى يلحق بالكلام . كالسجع والجناس والمقابلة واسلوب الحكيم والتقسيم وما إلى ذلك مما يعرف بالمحسنات اللفظية والمعنوية .

اما عن غاية البلاغة . فليس المراد من الكلام وقفا على تغذية الفكر وحده فهناك قوى نفسية اخرى تعنى البلاغة بها لتغذيها وتهذبها . من ذلك قوة الانفعال وقوة الارادة . ولا نقول ان الأدب العربى قصر فى ذلك . وانما نقول ان الدراسة النظرية فيما انتهت اليه هي التى ضاقت عن العناية بهذه المواهب النفسية كما يتضح ذلك مما يلي .

وأما عن الوسيلة فلم تكن اللغة العربية محصورة فى الصورة والجملة وحدهما . فهناك الكلمة والعبارة والأسلوب عامة ، وهناك هذه الفنون الأدبية المختلفة شعراً ونثراً كالخطابة ، والرسالة ، والوصف ، والجدل ، وغيرها مما أهملته هذه الدراسة ـ او العلوم ـ البلاغية فى اللغة العربية حسبما انتهى اليه وضعها الأخير

لنفهم المطابقة لمقتضى الحال فهماً عميقا شاملا يجب ان نقيمه ـ من حيث الغاية والوسيلة ـ على طبيعة النفس الانسانية ومواهبها من ناحية ، وعلى الأدب : اسلوبه وفنونه المختلفة من ناحية اخرى .

علم النفس ينفعنا هنا ، ويتعاون مع النقد الأدبى والبلاغة فى تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وفى بيان موضوع الدراسة البلاغية بيانا مفصلا منظما . فكيف نوضح ذلك ؟ (١)

---

(١) راجع أصول البلاغه للاستاذ Genung

(١) هناك اولا قوة الادراك The power of intellect تلك القوة بها يعرف الانسان ويفكر ويعلل ويستنبط . وهذه القوة تحتاج فى ثقافتها والتأثير فيها الى الحقائق الصحيحة المعقولة المؤيدة بالبراهين الصادقة ومعنى المطابقة بالنسبة لهذه القوة تمكين القراء والسامعين من إدراك المعارف وفهمها والاقتناع بها وهى القوة التى تغلبت على رجال العلم ، والفلسفة والسياسة . ويشتد سلطانها ايام الاستقرار وفى البيئات الخصبة الغنية . وأما الكلام الذى يلائم هذه القوة فهو النثر العلمى او الأدب بالمعنى العام . كالتاريخ والنقد والعلوم والفلسفة . من كل مايزود بالحقائق الحيوية النافعة .

(٢) قوة الانفعال (العاطفة) The power of emotion وبها يشعر الانسان ويتخيل . وهى الظاهرة التى تتحكم كثيرا فى حياة الشبان والفنيين والنساء وتوقظها البيئات الجميلة والمواقف العنيفه والحوادث القوية وايام الثورات ، والكلام الذى تتجه الى العاطفة يجب الا يقف عند افهام الحقائق بل لا بد من إيقاظ الشعور وبعث الخيال وذلك هو الشعر والنثر الأدبى الممتاز كالقطع الوصفية . والرسائل الشاكية أو الغزلية . والقصص القيمة . والروايات المؤثرة . مما يسود فيه عنصر العاطفة .

(٣) ثالثا قوة الارادة The power of will وهى القوة العملية التى يعتمد عليها الانسان فى تنفيذ ما يعتقد . وفى الاتصال العملى بالحياة والكلام الذي يلائم هذه القوة يجب أن يجمع بين امرين : الافهام والتأثير . عن طريق الادراك والوجدان . وبذلك يدفع الانسان إلى العمل ويؤثر فى سلوكه وأخلاقه . وهى كما تعلم موهبة الجند . القواد ،

ورجال المخاطر ، وذوي المذاهب والآراء الحديثة ، وأكثر ما تلزم أيام المحن والانقلاب . والخطابة هي الفن الكلامي الذي يعد أنسب الفنون لقوة الارادة ، ولذلك تعد فنا عملياً ، وهي تجمع بين قوتي الاقناع والتأثير اللذين يدفعان الارادة إلى العمل الحاسم .

وهنا نرى أن معني المطابقة البلاغية قد اتسع فتتناول مظاهر النفس الانسانية ومواهبها المختلفة ، كما اشتمل على الفنون الأدبية جميعاً . ولاحظ فوق ذلك الزمان ، والمكان ، والنوع الذي تتحدث إليه ، وإذا تقدمنا قليلا فلاحظنا الفرد ومواهبه الخاصة ، والأساليب وعناصرها التفصيلية ، وأنواعها المتعددة تراءى لنا هذا المدى الواسع الذي تنبسط فيه الناحية التطبيقية لفن البلاغة . وأدركنا إدراكا صحيحاً ماقيل من أن المتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض يجب أن يفحصه فحصاً دقيقاً وأن يفرض له من الدواء — أو الكلام — ما يلائمه وإلا أضرّ به . ونقول إن البليغ مع المخاطبين كالقائد أمام الحصن يجب أن يهاجمه من حيث ينتظر الظفر ، وبالسلاح الذي به يفوز .

وإتماما لهذه المسألة نقول . من المقرر الثابت في علم النفس أن هذه القوى المعنوية ليست منفصلة إحداها عن الباقي في الطبيعة النفسية ، بل هي خاضعة لنظرية الوحدة الروحية . فهي مظاهر تتوارد على نفس الانسان حسب الدواعي والمؤثرات . فالانسان مرة مفكر بنفسه . وأخرى منفعل بها ، وثالثة مريد معتزم والنفس هي هي ، إلا أنها تلبس لكل حال ثوبا يناسبها . وهي مع ذلك متواصلة متعاونة فالفكر يشد أزر العاطفة . وهي توقظه ، وهما يمدان الارادة . ويندر أن توجد فكرة لا تثير عاطفة ولا

تحرك إرادة. ومثل ذلك يقال عن الفنون الأدبية التي تغذي هذه المواهب النفسية.

(١) فليست هذه الفنون متضادة بحيث لا يلتقي فن بالآخر ولا يصل اليه بسبب. كلا، فكل فن منها يتصل بالباقي أشد اتصال، إذ تتألف من عناصر واحدة هي اللفظ والمعنى الذي ينحل إلى العاطفة والخيال والفكرة، وإن كانت تتفاوت في مقدار ما يحويه كل منها من هذه العناصر تفاوتا يقوم على طبيعتها وغايتها. على أنها جميعا تصدر عن الانسان وترمي الي تهذيبه كذلك. وقد رأيت أنها جميعا تندرج تحت هذا المعنى العام لكلمة الادب.

(٢) كذلك لا تتعارض هذه الفنون من حيث صلتها بقوى النفس الانسانية. فالخطابة مثلا تغذي الفكر والعاطفة وإن كانت تتجه الى الارادة اتجاها أساسيا مقصوداً لذاته، فهي تستخدم هاتين القوتين لتنفذ خلالهما إلى الارادة لتبعثها وتحمل صاحبها على العمل. كذلك الشعر يؤثر في الفكر والارادة مباشراً وغير مباشر، لما فيه من الحقائق والعواطف، وبخاصة إذا كان شعراً خطابياً تهذيبيا. والنثر العلمي يتجه بحقائقه مباشرة إلى الفكر. ولكن الحقائق عماد العاطفة وسبب قوتها وصدقها. وهي كذلك أساس العقيدة التي تتكيء عليها الارادة. ونتيجة ذلك أنّ أيّ هذه الفنون يؤثر في قوى النفس جميعا وان تفاوتت الآثار بتغاير الفنون، فهي متعاونة متواصلة شأن القوى النفسية ذاتها.

(٣) ويقال نحو ذلك بالنسبة لطبقات الناس وبيئاتهم، فكما أن هذه الطبقات الانسانية — مهما تختلف مواهبها في الدرجة — ذات وحدة روحية أو نفسية عامة. وبينها قدر مشترك منها مهما تتباين بها الأزمنة والأمكنة، كذلك الفنون الأدبية، يجد كل نوع بل كل فرد في أيها ناحية تغذي

نفسه وتؤثر فيه ، فالناس جميعا لهم عقول ، وعواطف ، وعزائم ، والفنون فيها ما يفيد المرأة ويثير الرجل ، وفيها ما ينفع الشاب ويهيج الفيلسوف ، وفيها ما يشجى الجندي ويستفز الحليم ، إذ كان الأدب صادراً عن الانسان ومتجها الى الانسان .

(٤) وسنرى فى غضون هذه الرسالة أن صفة القوة ألزم للأسلوب الخطابى ، والوضوح أظهر في الأسلوب العلمي . والجمال أخص صفات الأسلوب الأدبى . فليس معنى ذلك أن الخطابة تستغنى عن الوضوح أو الجمال وإلا فلن تفهم ولن يحتملها الناس ، فتفقد إقناعها وتأثيرها . وبذلك لا تتحقق غايتها العملية . ولا يمكن أن ينكر الأسلوب العلمى القوة والجمال . فرارا من الثقل والجفاء فلا يقبل عليه القراء ولا يفيدون منه شيئا . ولن يكتفى الشعر مثلا بجمال الأسلوب دون الوضوح والقوة . وإلا فقد ميزته الأدبية التي هى أداء المعانى العقلية . وميزته الفنية الهامة التى هى إثارة العواطف فى نفوس القراء . فلا بد إذا من توافر هذه الصفات فى كل أسلوب وإن كان يجبهك منها أوضحها فى الفن الذى تدرسه .

(٥) وخلاصة هذا الفصل أن هناك وحدتين : وحدة نفسية ووحدة أدبية . والأولى تتوافر فى طبيعة النفس الانسانية وتتراءى لنا مظاهر شتى تتعاقب عليها فكراً أو عاطفة أو إرادة . وأى قوة فى إحداها تفيد سائرها مادام الانسان حريصا على حفظ التوازن بينها . والثانية تظهر فى طبيعة الكلام وصدوره عن نفس الأديب واشتماله على تلك العناصر الأدبية التى هى فى الأصل عناصر نفسية صالحة لتثقيف الانسان وتهذيبه من أى طبقة كان ، وفى أى بيئة من المكان والزمان .

الفصل الثالث
في علوم البلاغـــة

رأينا فى الفصل الأول أن البلاغة ، فى ناحيتها النظرية ، علم من العلوم الأدبية ، وهنا نذكر أنها فى حاجة إلى علوم أخرى تعد وسائلَ لها ، ويجب أن يقوم كل منها بواجب أولى فى الإنشاء البليغ . ثم يقوم الفن البلاغى بعد ذلك ليتم ما عليه من حسن التعبير ومطابقتـه لمقتضى الحال .

وأهم هذه العلوم البلاغية اثنان : هما النحو والمنطق .

(١) فالنحو — ومنه الصرف — يرشدنا إلى بناء الكلمات اللغوية وتصريفها وبيان علاقاتها معاً فى الجمل والعبارات . ثم يعيننا كذلك فى تكوين التراكيب الصحيحة . والفكر المترابطة الأجزاء . وبذلك تنتهى مهمته مادام قد حقق لنا صحة العبارة فى ذاتها بصرف النظر عن صلتها بالقراء أو السامعين . وعلى الفن البلاغى بعد ذلك أن يتصرف فى العبارة — مع بقاء صحتها — تصرفا يجعلها سلسة . قوية التأثير . بعيدة عن التنافر سهلة قريبة الفهم . فقد تكون العبارة صحيحة التكوين النحوى ولكنها مع ذلك سقيمة التراكيب صعبة الفهم . لاترضى الذوق . وإذاً فلا يمكن أن تسمى بليغة — لأن البلاغة تستلزم أمرين : هذا الصواب النحوى الذى أشرنا إليه . ثم الجمال والملاءمة لأذواق المخاطبين وعقولهم — من أمثلة ذلك قول المتنبى :—

وشيخٌ فى الشباب وليس شيخاً يسمى كلُّ من بلغَ المشيبا

لكثرة الاضطراب فى تكوين العبارة حتى صارت بطيئة الفهم.

وترتيبها الطبعي هكذا : « هو شيخ في الشباب . وليس كل من بلغ المشيب يسمى شيخاً » فهذه الصحة النحوية . والمطابقة لقواعد الاعراب لا تكفي لتحقيق البلاغة مادام التقديم والتأخير قد مزّق أوصال العبارة كما رأيت: وكذلك قول ابن المقفع : « ليعلم إخوانك والعامة أنك إن استطعت أن تكون إلي أن تفعل مالا تقول أقرب منك إلي أن تقول مالا تفعل فعلت.» وهذا الذي ذكرناه هنا هو ما ألم به الأستاذ عبد القاهر الجرجاني في معرض القول في نظم الكلام وتأليفه حيث يقول: (١) «فان قلت : أفليس هو كلاما قد اطّرد على الصواب : وسلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة ؟ قيل : أمّا والصواب كما ترى فلا . لأنا لسنا في ذكر تقويم اللسان . والتحرز من اللحن . وزيغ الاعراب فنعتد بمثل هذا الصواب وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة . ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه . ويصعب الوصول إليه . وكذلك لا يكون ترك خطإ تركا حتى يحتاج في التحفظ إلى لطف نظر وفضل رويّة . وقوة ذهن . وشدة تيقظ . وهذا باب ينبغي أن تراعيه . وأن تعنى به . حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع . فضممت إلى كل شكل شكله . وقابلته بما هو نظير له . وميزت ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه — ثم ذكر مثالا لحسن التأليف قول الشاعر :—

سالتْ عليه شعاب الحيّ حين دعا أنصارَه بوجوه كالدنانير

---

(١) ص ٧٧ دلائل الاعجاز . ويلاحظ أن نظم الكلام يقابل الاسلوب ولكننا آثرنا التعبير بكلمتها وشيوعها .

فانك ترى هذه الأستعارة على لطفها وغرابتها . إنما تمّ لها هذا الحُسن وانتهى إلى حيث انتهى . بما توخّى في وضع الكلام من التقديم والتأخير . وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك . وموازرته لها . وإن شككت فاعمد الى الجارّين والظرف . فأزلْ كلا منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه فقل : سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره . ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم اريحيتك التى كانت وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها ،

(٢) وأما المنطق فانه يعلمنا طرق التفكير الصحيح . ويشرح لنا خواص الفكرة الصحيحة فى ذاتها . لا يعنيه بعد ذلك أكانت مفهومة للناس أم لا . استطاعوا أن يدركوا الفكرة واضحة قوية رائعة أم سطحية فاترة فعلى البلاغة بعد تسلم هذه الأفكار الصحيحة أن تقوم بجهد فنّى خطير فتبسط الأفكار وتحسن ترتيبها وعرضها وأداءها بعبارة واضحة جميلة . وتلائم بينها وبين من كتبت لهم . وبذلك تتحقق البلاغة من هذه الجهة المعنوية أيضاً . وهنا نقول كما قلنا قبلا : إن الأفكار قد تكون صحيحة فى ذاتها . مسلمة المقدمات والبراهين . وهى مع ذلك أبعد ما تكون عن البلاغة وحسن البيان لأنها ليست فى مستوى القراء . غريبة عن بيئتها الزمانية أو المكانية . تعوزها الروعة والقوة أو العبارة المناسبة لها . ومن هنا عيب التحدث الى العامة بأفكار الخاصة كما أن عكس ذلك صحيح . مهمة البلاغة اذاً الحرص على صحة الأفكار والمعلومات . ثم عرضها عرضاً واضحاً قوياً ملائما للمخاطبين ومن كلام بشر بن المعتمر[1] « ومن أراد

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥

معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما . فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما أو يهجنهما . وعما تعودُ من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس اظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما . وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل . فان أولي الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا . ونخماً سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريبا معروفا . إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة أردت . والمعني ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة . وانما مدار الشرف علي الصواب واحراز المنفعة . مع موافقة الحال . وما يجب لكل مقام من المقال وكذلك اللفظ العامى والخاصى فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام » .

وخلاصة هذا الفصل أن هناك مسألتين يجب ان تتوافرا فى الكلام البليغ هما الصحة والمناسبة . فالأولى من وحى المنطق والنحو والثانية هى الميزة التى يختص بها الفن البلاغى الجميل .

الفصل الرابع
البلاغة بين العلم والفن

حينما يدرس الطالب قواعد البلاغة ومسائلها دراسة نظرية منظمة . يقال: إنه يدرس علم البلاغة. كما يدرس مواضع الفصل والوصل ، وقوانين التشبيه والمجاز ، وأصول الخطابة والرواية والوصف . فاذا ما أخذ يطبق هذه القواعد تطبيقا عمليا بانشاء الكلام البليغ ، قيل : إنه يعالج فن البلاغة . كأن يرتجل الخطابة ، أو يكتب القصة ، ويبدع الوصف. فالعلم هو المعارف الانسانية فى أسلوب منسق ، والفن هو هذه المعارف فى شكل عملي تطبيقى. والفن نوعان: نافع كالصناعات التى يكون عمل الجسم فيها أظهر من عمل الذوق . وفن جميل . وفيه يكون أثر الذوق ومظهره أشد من أثر الجسم ، كالموسيقا والأدب والرسم والتصوير . فهذه كلها لغات حسية جميلة تعبر عن عاطفة الانسان وشخصيته الفنية تعبيراً جميلا بوسائلها المختلفة . كألحان الموسيقا .وعبارات الأدب . وألوان الرسم . وأدوات التصوير وهو عمل الصور — أى التماثيل — وهناك كلام كثير فى الفروق بين العلم والفن ليس هنا موضع الخوض فيه[1] وإنما نذكر فى هذا الفصل صلة البلاغة بكل من العلم والفن مع الاشارة الى فوائدها فى كل ناحية من هذه النواحى متوخين الايجاز ما دام كافياً .

(١) وقد أسبقنا القول فى أن البلاغة علم أدبي .وكنا نلاحظ هناك نسبتها إلى الأدب بمعناه الخاص غالباً . أى هذه النصوص الممتازة من الشعر

(١) راجع صحيفة دار العلوم عدد ٢ من السنه الثالثة ص ٣٥ للمؤلف

والنثر ، وقرناها بالنقد الأدبى . فكلاهما نافع فى إرشاد الكتاب والشعراء إلي خير المثل التى تهب لآثارهم الفنية خاصتى الافادة والتأثير . ونستطيع هنا أن ننسبها الي الأدب بمعناه العام فتدخل دائرة العلوم التى تبحث فى علاقة الانسان بالزمان والمكان . وعلاقة أفراده وجماعاته بعضهم ببعض كالتاريخ . والجغرافيا . والقانون . والاجتماع . والاخلاق(١)

وليس من شك فى أن البلاغة تبحث فى هذه الصلات وتقيم عليها مسألتها الرئيسية وهى كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال كما اتضح ذلك فى الفصل الثاني من هذه المقدمات . فأصول الخطابة قائمة على العلاقة بين الخطيب والسامعين . وبينه وبين البيئة الزمانية والسياسية والاجتماعية التى نعيش فيها . وكذلك الكاتب والشاعر والراوي وكل صاحب قلم أو لسان . ولكن ما فائدة هذه الدراسة النظرية ؟ ألا يستطيع الانسان أن يكون بليغا دون ان يدرس قواعد البلاغة ؟

مثل ذلك قيل لعلماء المنطق لما وضعوا للناس طرق التفكير الصحيح وليس من ينكر علي بعض الناس صحة التفكير وحسن التعبير دون الرجوع إلى قواعد المنطق وعلم البلاغة وقد أجاب المناطقة بأن علمهم من أهم الوسائل للتربية العقلية والمرانة على طرق البحث العلمى الصحيح على أن الانسان يمكنه الاستغناء عن المنطق مادام تفكيره صواباً ولكن من يستطيع أن يضمن لنفسه أو لغيره اطراد الصواب وعدم التورط فى الاخطاء ولا سيما فى المسائل الملتوية العويصة ؟ ومثل ذلك يقال عن النحو والعروض وعلم الصحة .

---

١ — أصول علم النفس للاستاذ قنديل : ج ١ : ص ٣

ولما وُجّه هذا السؤال الى رجال البلاغة · قالوا : إننا نعترف بأن هناك من ذوى المواهب البيانية . والاستعداد الفطرى لانشاء الأدب الجميل . ولكن هؤلاء أنفسهم معرضون للوقوع فى أخطاء شتى حين يتناولون فنون الخطابة والرواية والقصة ، إذ لا يعقل أن يستوعب الانسان بفطرته تجارب العلماء والفنيين والنقاد. فهذه الدراسة العلمية تختصر الوقت وتوفر عليه كثيراً من التجارب الواسعة ، وهى ضمان يقى الأديب الزيغ الذى لم ينتبه له . ويهديه إلى أقوم الطرق البيانية ، ويرسم له المثل الصالحة للأداء فيفيدون من ذلك أجل الفوائد وأغزرها ويضيفون الى عمرهم الأدبى أعمار السابقين من العلماء والأدباء ، أما غير الموهوبين فلن ييأسوا لأن هذه الدراسة النظرية تصقل مواهبهم الأولية فتعلمهم طرق القراءة والفهم والنقد وتظهرهم على نواح فى الأدب مستورة وتجعل قراءتهم عميقة نافعة . هذا من الناحية الأولى ومن جهة ثانية يكتسبون ذوقاً مهذباً يجعل أحاديثهم وأحكامهم وكتاباتهم أقرب الى المعقول . وأوفق للذوق الجميل . ومن هنا نجد مسائل البلاغة شديدة الصلة بأصول النقد الأدبى من حيث الارشاد والافادة حتى تسمى أحيانا البلاغة النقدية Critical rhetoric

ب — وإذا ذكر الفن العملى أو النافع فلا تعدم البلاغة ما يصل بينها وبينه ويبدو ذلك فى ناحيتين : —

الأولى من حيث طبيعتها ، فالبلاغة تحوى هذه الناحية التطبيقية التى تبدو واضحة فى الملاءمة بين الكلام وبين حاجة القارىء أو السامع فى هذه الأحوال المتباينة . فالخطابة لها مواقفها ورجالها وأساليبها والكتابة تحسن حيث لا يحسن الشعر ، والحوار يجود حين لا تنفع المحاضرة بشىء ،

حتى حركات الخطيب والممثل كثيراً ما تكون جزءاً من التعبير البلاغى .

الثانية من حيث غايتهما ، فاذا كانت غاية الصناعات النفع المادى وكسب المال فذلك يمكن توافره فى الفن البلاغى كما فى الصحافة العادية ، والتقارير الاقتصادية . والكتب العلمية التى ترمى الى غاية نفعية مادية كالزراعية والصناعية . وناحية أخرى حين يتخذ الأدب نفسه وسيلة استجداء وكسب ، وفى ذلك زراية به ، ونقل له من ميدان الفن الجميل إلى دائرة الحرف والصناعات .

ج — والبلاغة بعد ذلك أشد ما تكون صلة بالفن الجميل ، لأنها فى الحقيقة أحد هذه الفنون كالرسم ، والتصوير ، والموسيقا ، والنقش ، ونستطيع هنا أن نذكر بعض نقط المشابهة بين البلاغة وبين سائر هذه الفنون .(١)

(١) القدرة على التعبير الجميل هبة طبعية ، كحاسة السمع للموسيقا ، والبصر للألوان والتناسب بينها . وهذه القدرة متفاوتة الدرجات بين الناس وفى الأحوال المختلفة ، فقد تكون مرهفة يقظى تدرك سر الفصاحة ، ومواطن الجمال بداهة كما تحسن ارتجال القول المؤثر الجميل ، وقد تكون فاترة هادئة ، فهى محتاجة إلى ما يوقظها ويشحذها من قراءة عميقة او استماع إلى نصوص جميلة ، ولكنها على أية حال كافية للانشاء العادى والكتابة العلمية الواضحة . وهذه الموهبة الطبعية هي السر الأول فى النبوغ البيانى والعبقرية الأدبية ، وقد أسبقنا أن ذوى الملكات الفنية أقدر الناس على الابتكار ، وأصدقهم حكما على الآثار الكتابية ، وأكثرهم انتفاعا بالدراسات النظرية .

---

(١) راجع صحيفة دار العلوم عدد ٢ من السنة الثالثة للمؤلف

(٢) طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى ، لا يكتفي بهذه الموهبة الطبيعية بل يحاول دائما صقلها ، وتهذيبها ، وترقيتها لتقوى ، ويطرد نموها لتجاوز الدرجة الوسطى إلى مستوى النبوغ والابتكار . وهنا نرى طرافة الأساليب وجدتها ، وفرضها على الأدب والأدباء . فعل ذلك الجاحظ قديما ، ويحاوله كثير من المعاصرين والمحدثين . ولولا ذلك لعاش الناس فى درجة ابتدائية ووقفت حركة التجديد .

(٣) الأسلوب البلاغى — كالأسلوب الموسيقى والتصويرى معرض لأخطاء يقع فيها الطالب ويجب التنبه لها . والحرص منها باخلاص شديد . منها التهاون الذى يدفع بالأديب الى التعابير المحفوظة والتراكيب المبتذلة دون التفكير فى معانيها ومقدار ملاءمتها للغرض المقصود . وهذا هو التقليد الأعمى والكسل الضار . ومنها الثقة العمياء بالنفس والاعتداد بالمهارة الشخصية وعدم الصبر على المرانة اللازمة لتقويم الأساليب . وهذا العيب يظهر عند من تسهل عليهم الكتابة وتكون طبائعهم فياضة ، فيظنون — خطأ — أن استعدادهم كفيل بالنجاح . ومنها الشغف بالمحسنات البديعية وتكلف الاغراب والمبالغة ومعنى هذا أن الكاتب يعنى بالثوب الذى يلبسه المعنى أكثر من عنايته بالمعنى ذاته . فيصبح الأدب أشبه بالحرف اليدوية يعمل لذات الألفاظ . مع أن الفن البلاغي لم يوجد إلا لنشر الأفكار وخدمة المعانى التى يجب أن تستقر فى نفوس الآخرين . وقد وجد فى تاريخ الأدب العربى جماعة من الكتاب جعلوا همهم الصناعة اللفظية ، وغلبوا جانب الألفاظ على ناحية المعانى والموضوعات ، ستجد أمثلة منهم فيما يرد عليك فى دراسة الأساليب .

(٤) هناك فكرة شائعة بين الفنيين كثيراً ما يتشبث بها طلاب البلاغة ، هي أن تقييد الفن ورجاله بالقوانين الموضوعة يطغى على حرية الطالب ويحد من كفايته ، وقد يكبت نبوغه المرجو . على أن هذه الأساليب التي تتراءى أول ظهورها شاذة غريبة كثيراً ما تصبح بعد حين مألوفة مقررة أو مستحبة متبعة . فاذا خرّجنا البلاغة على هذه النظرية ألغينا جهود السابقين وعرضنا الناشىء لتجارب خطيرة قد تضره . وخير للطالب أن ينتفع بآثار السابقين لتكون له نقطة ابتداء وإرشاد . وله بعد ذلك أن يبتكر ما شاء في ظل هذه الآثار وعلى هدى من أصول البلاغة حتى لا يصاب بالشطط . وعلى هذا الأساس نجد المعاهد العلمية تأخذ الطالب بدراسة الأدب القديم والحديث معا لعلها تعرض عليه بذلك ما يختار منه خير مساعد له على الافادة والنبوغ .

(٥) واذا لاحظنا النصوص البيانية من ناحية عناصرها التي المنا بها في الفصل الأول ومن ناحيه غايتها التي هي غاية الأدب التعليمية والتهذيبية ومن ناحية صلتها بالموسيقى الأدبية .. رأينا البلاغة تسيطر على ميزات الفنون الجميلة الأخرى وتمتاز بهذا الافصاح الواضح .

الفصل الخامس
موضوع علم البلاغة

رأينا أن البلاغة العربية انتهت فى أبحاثها إلى علمين أساسيين : المعانى والبيان ، وجعلت البديع ملحقا بهما . كما لاحظنا أن مباحث هـذه العلوم لاتخرج فى جملتها عن دراسة الجملة والصورة لتغذية قوة الادراك النفسية ، وسنرى هنا ، كما بينا من قبل ، أن موضوع البلاغة أعم من ذلك وأشمل وأنه لا حاجة بنا مطلقا إلى هذه الأسماء العلمية — كالمعانى والبيان والبديع — التى تطلق على نقط جزئية لاتستوجب هذه العنوانات .

يُعرف موضوع البلاغة بالرجوع الى أهم خواصهـا وهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال [١] ، فأبحاث علم البلاغة تدور حول هذه المسألة وبيان ما يناسب ومالا يناسب ، لأن مايحسن فى خطاب جماعة أو فى حال ما . قد لايحسن مع جماعة أو فى حال أخرى . وما قد يصلح لغرض علمى من الأساليب لايصلح لغرض أدبى ، فالمسألة هي بيان الأنسب ، لذلك يعترضنا دائما هذان السؤالان : ماذا نقول ؟ وكيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الأول تتناول القواعد الخاصة بمادة الكلام البليغ من حيث موضوعاته ، وأفكاره ، وعواطفه ، وأخيلته . كما أن الاجابة عن السؤال الثانى تقوم على طريقة التعبير عن هذه المادة وأدائها .

ويجب أن نلاحظ أن قوانين التعبير تشمل المادة أو تمسها ، إذ كانت المادة مقياس العبارة وسبب تنوعها فالأسلوب يختلف خطابة عنه رسالة ،

---

(١) Gennung

والعبارة الاستفهامية تخالف الإخبارية ، وكذلك دراسة المادة لا تخلو من القول فى التعبير . فالمادة لا تدرس على أنها شيء منفصل مستقل ، وإنما يراعى أنسبها ، وصلته باللغة التى تؤديه تقريرا كانت او حوارا ، ومن الناحية النقدية لا أستطيع وصف الكلام بالوضوح او الجمال إلا إذا نظرت إلى معانيه فهى مقياس هذه الأوصاف كما يمر بك فى الكلام على صفات الأسلوب . ومعنى هذا ان ناحيتى الدراسة البلاغيه تلتقيان كما رأيت . وقد تفترقان افتراقا جزئيا حين نتأخر إلى الوراء لننظر فى مسألة الصحة وحدها ، اي حين نبحث فى صواب الفكرة فى ذاتها ، أو فى سلامة التراكيب نحويا لكن الدرس البلاغى لا يري فصلهما بحال .

ومهما يكن من الأمر فان الدراسة العلمية تبيح لنا أن نتناول كل جانب ونخصه بدراسة غالبة فيه ، وبذلك ينحصر موضوع البلاغة فى بابين أو كتابين : الأسلوب ، والفنون الأدبية .

(١) الأسلوب Style . وفى هذا القسم من علم البلاغة ندرس القواعد التي إذا اتبعت كان التعبير بليغاً أى واضحاً مؤثراً ، فندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة . والأسلوب من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه ، وقد يجد الطالب فى هذا الدرس شيئاً من التفاصيل المحتاجة الى أناة وصبر لكنها خطيرة النتائج في فن البيان .

وفى هذا القسم نضع البلاغة العربية ، فعلم المعانى يدخل كله فى بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل فى باب الصورة ، وتبقى المباحث الأخرى مهملة فى هذه الكتب التى انتهت اليها الدراسة البلاغية . نعم إنك واجد بلا شك في كتب الأقدمين كالصناعتين . ودلائل الاعجاز .

وأسرار البلاغة ، والمثل السائر مباحث قيمة تتصل بالعبارة من الناحية الفنية العامة ولكنها غير مستوفاة ولا منظمة .

(٢) الفنون الأدبية وقد تسمى قسم الابتكار Invention وهنا ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتنسيقها وتنسيقها وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية . وقواعد هذه الفنون كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ. وليلاحظ ان الدراسة هنا شكلية كذلك فهي لا تخلق المادة للطالب بل تمده الأفكار والآراء . فذلك من عمل الطالب وقراءته الخاصة وتجاربه الحيوية التي تمده بالآراء وتكشف له عن الحقائق . وعلى البلاغة أن تشير فقط الى ما يتبع في تأليف المعاني وتنظيم الفنون اقساما لتنتج الآثار المرجوة .

وهنا أشير الى مسألة هي نتيجة لما اسلفنا ، تلك أن عمل البلاغه يميل في جملته الي الناحية الشكلية او الاسلوبية فهو ان يعرض الفكرة بل لملاءمتها ولا يخلقها لكن ينسقها وهو يعنى كثيرا بالعبارات والأساليب حتى ان بعض الباحثين يطلق عليه كلمه الأسلوب .ومهما تختلف وجهات النظر فقد أصبحت البلاغة تبحث الآن فى هذه الموضوعات التي ذكرنا ولن تستطيع الافلات من الاجابة عن هذين السؤالين : ماذا نقول؟ وكيف نقول؟

وكما لاحظنا قصور علم البلاغة عندنا فى قسم الأساليب كذلك نجدها قاصرة فى قسم الفنون الأدبية إلا فقرات مفرقة او فصول درست لأغراض غير أدبيه كما فى آداب البحث والمناظرة .

وبالموازنة بين ابحاث البلاغة كما دونتها الكتب العربيه الأخيرة . وبين موضوعها كما يجب ان يكون ، نستطيع ان نقرر النتائج الآتيه :—

(١) ان نصف البلاغه النظرية مفقود فى اللغة العربيـة أكثره فى قسم الفنون الأدبية ، وباقيه فى باب الأسلوب . على أن ما ترجم من خطابة أرسطو وشعره إنما نقل على أنه فلسفة لا أدب ، وكانت الترجمـة قاصرة فلم تفد كثيرا .

(٢) ان شطرا من الأسلوب قد درس تحت عنوان المعاني والبيـان والبديع وهو شطر على خطورته يعوزه التنسيق، ولا حاجة بنا الآن الى هذه الاسماء التى تسمى علوما خاصة لأجل فصول بلاغية يسيرة .

(٣) ان البلاغه العربية فى حاجة الى وضع علمى جديد يشمل هـذه الأبواب والفنون التى اشرنا اليها ، ويصـل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية . حتى يخدم الأدب ، وذلك كله غير البحث التاريخى الذى يفرد له بحث خاص .

(٤) أن الأدباء هم أولي الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم فذلك هو الذى أفسد بلاغتنا وحولها أبحاثاً لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء .

* * *

ولست أدعى انى أفعل شيئا من ذلك فى هذه الفصول وحسبى أمران الأول هذه الاشارة الى ما يجب ان ننهض به .

الثانى انى تناولت الأسلوب من بعض نواحيه العامة لا لشىء إلا لأنه صادفنى بين دروس هذه السنة .